

ارض بما ليس منه بد

يقول الفيلسوف « وليم جيمس » « كن مستعداً لتقبل ما ليس منه بد » فإن
تقبل الأمر خطوة أولى نحو التغلب على ما يكتنف هذا الأمر والواقع من
صعاب .

وتؤكد جدوى هذه النصيحة الغالية سيدة موظفة بإحدى المصالح
الحكومية فقد تسلمت برقية من إدارة الجيش تفيد أن ابن أختها قد قتل في
معركة الكرامة العربية 1973 .

وكان عزيزاً على قلبها حبیباً إلى نفسها وتقول إنني كنت هذه اللحظة
أعتقد أن الأقدار تجاملني فقد كنت أراول عملاً أحبه وأتفانى في الإخلاص
له ويستنفذ كل نشاطي .

وقد كنت قد ساهمت في تربية هذا الشاب وتنشئته وكان كريم الخلق
وجميل الطباع وتضيف هذه السيدة أنني بمجرد أن تسلمت هذه البرقية
أحسست أن سعادتي قد انهارت وأن لا طعم للحياة من بعده وقلت فيما بيني
وبين نفسي « لماذا قدر لابن أختي أن يموت وهو على أبواب ربيع حياته ولم
ينعم بالدنيا بعد .

وصممت على أن أنقطع عن عملي وأتفرغ لدموعي ولوعتي وفعلاً
انتويت تقديم استقالي وحملت أوراقى الموجودة بالمكتب تمهيداً لذلك وبينما
أفعل ذلك استرعى انتباهي خطاب كان ابن أختي قد أرسله لي منذ عام
وكنت محتفظة به في مكتبي وكان يعزيني في فقد والدى ويقول أعلم أنك

ستفقدن أباك وأعلم أيضاً أنك ستقبلين هذا القضاء المحتوم وتواصلين الحياة وأنت قد علمتني فلسفة الحياة حيث عودتي يا خالتي الابتسام في مواجهة أي كارثة وأرضعيني الرضى بما ليس من وقوعه بد «

وتقول لقد قرأت هذا الخطاب عدة مرات وصممت على أن أواصل عملي وأن أخفي أحزاني تحت قناع من الابتسام وأواصل الحياة ولهذا عدلت عن الإستقالة وقلت لنفسي « لقد قضي الأمر وليس إلى تغييره من سبيل » .

ويقول الفيلسوف شوبنهاور « إن التسليم بالأمر الواقع ذخيرة لا غناء عنها في رحلتنا عبر هذه الحياة » .

إن الظروف ليست هي التي تمنحنا السعادة أو تمنعها عنا وتحرمنا إياها وإنما كيفية استجابتنا لهذه الظروف هي التي تقرر مصيرنا وإن في استطاعتنا جميعاً أن نتحمل الكوارث بل وأن نتغلب عليها ولا ندع أنفسنا نهياً للقلق لأننا نملك من القوى الذاتية ما ينصرنا على هذه الكوارث لو أننا أحسنا استخدام هذه القوى .

عرفت صديقاً كان يقول دائماً « إن في مقدوري أن احتمل كل ما تبليني به الحياة من مصائب إلا شيئاً واحداً هو العمى » وعندما بلغ هذا الصديق سن التقاعد إلى المعاش أطرق برأسه يوماً يتأمل السجادة الجميلة التي اشتراها من الخارج ويعتز بجمال رسومها كل الاعتزاز فوجد أن ألوانها وزخارفها تختلط جميعاً فلا يتضح منها شيئاً .

وقصد إلى طبيب أمراض العيون وفوجيء بالحقيقة أنه فقد نور إحدى عينيه وأن العين الثانية في سبيلها إلى الإصابة بالعمى أيضاً أي أن أخشى ما كان نخشاه قد تحقق وعندما سئل إذا كان يشعر أن أجله قد أوشك كان رده

عجيباً إنني أشعر بالسعادة حينما أرى أفراد أسرتي يمرون أمامي كأنطيف
وعندما شاهد طيفاً ضخماً قال هذا طيف والدي ولست أدري مقصده في
هذا الصباح الجميل .

وقال " لقد وجدت أن في وسعي أن أتقبل العمى كما أتقبل أي كارثة
أخرى ولو أنني فقدت حواسي الخمس جميعاً لواصلت الحياة داخل عقلي فنحن
نرى ونحيا سواء أدركنا هذه الحقيقة إن غابت عنا " .

ولا يسعني أن أعلق على مثل هذا الصديق بكلمة قصيرة معبرة كل
التعبير " إن روحاً كهذه لا يمكن أن تقهر أو أن تستسلم للقلق " .

وقد أعجبتني كلمة الشاعر الانجليزي الأعمى " جون ملتون " الذي قال
عبارة الرائعة التي صارت مثلاً فيما بعد « إنه ليس من البؤس أن تكون فاقد
البصر ولكن من البؤس أن لا تستطيع احتمال فقد البصر » .

ويقول أحد علماء الزراعة وتربية الحيوان « لقد أمضيت خمسة عشرة عاماً
مع الماشية فلم أر بقرة تبسّس لأن المرعى يحترق أو لأنه جف لقلة الأمطار أو لأن
صديقها الثور راح يغازل بقرة غيرها » .

إن الحيران يواجه الظلام والعواصف والجوع هادئاً ساكناً ولهذا فهو نادراً
ما يصاب بإنهيار عصبي أو قرحة في المعدة .

وليس المقصود بهذا الحديث أن نطأ طيء هاماتنا لكل كارثة تواجهنا لأن
ذلك نوع من الاستغراق في التشاؤم فإذا سنحت لنا الفرصة لإنقاذ أنفسنا فلا
نتردد في استغلالها أما إذا كان ما يواجهنا أمراً محتوماً ليس منه بد فيجب أن
نتوقف عن الكفاح بغير طائل .

وقد سأل أحدهم أحد مديري شركات السيارات كيف يأمن شر القلق؟

أجاب « عندما يواجهني أحد المواقف العصيبة فإنني أتأملة فإذا وجدت ما يمكن أن أعمله للتغلب عليه فإنني أبادر على الفور لعمله أما إذا لم يكن هناك ما أفعله فإنني أهمل الأمر نهائياً . إنني لا أقلق نهائياً للمستقبل لأنني أعلم أنه ليس في مقدور أحد أن يعرف خبايا المستقبل فلماذا إذن أقلق من شيء لم يحدث ولا أدري على أي وجه سوف يحدث ؟

وهل هناك مثلاً أروع من الممثلة العالمية « سارة برنارد » التي عرفت كيف ترضى بما ليس منه بد فقد ظلت ملكة متوجة على عرش المسرح أكثر من نصف قرن ولما بلغت السبعين عاماً من عمرها كانت في رحلة بالباخرة حينما هبت عاصفة عنيفة حاولت اجتياح الباخرة وسقطت سارة على أرض السفينة فأصيبت بجرح عميق في ساقها قرر طبييها الخاص ألا فائدة إلا من بتر ساقها لأنها أصيبت بتسوس في العظام وكان طبييها يخشى أن يعلمها بهذا ولكنها شجعتة وصممت على إجراء العملية وحينما كانت في سبيلها إلى حجرة العمليات كانت تمثل إحدى المشاهد فسألها أحد الأطباء هل تفعلين هذا لتبثي الشجاعة في نفسك فقالت بالعكس إنني أقوم بهذا الدور لأبث الشجاعة في نفوس الأطباء الجراحين لأن أمامهم عملاً شاقاً ، وعندما تماثلت للشفاء راحت تطوف العالم من جديد وأبهرت الناس بفنها على مدى ثمان سنوات أخرى ولهذا يجب قبل أن يسيطر علينا القلق أن نرضى بما ليس منه بد .

